أسباب تزكية النفس

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ١٣/٧/٢٠٠٧م

انتشر الفساد على هذه الأرض المخلوقة انتشارًا كبيرًا بكل أنواع الفساد الخُلُقيّ، إذ كَثُر الاعتداءُ على الإنسان قتلاً أو غِشًّا أو سرقة... والاعتداءُ على النبات والحيوان والبيئة، والاعتداءُ على توازن الخَلق...

ويتمرَّد من يتمرَّد على المواثيق، وتُضرَبُ العهود الدولية التي وقَّعوا عليها بعرض الحائط.

وأمام هذا الواقع وانطلاقًا من الرحمة التي يحملها كل من يدعو إلى الله، ومن هداية وحي السماء، ومن الرغبة في الخير... لا بد أن نرجع إلى السبب الذي أنتج طغيان الطغاة وإفساد المفسدين وقتل المجرمين وسرقة اللصوص...

لا بد ونحن على هذه الكرة الأرضية نَرْقُب هذا الواقع المُزري، أن نرجع إلى السبب الرئيس الذي أنتج كل ذلك.

وإنه لسؤال كبير يحتاج إلى جوابٍ مُجمَل مختصر، يضع اليد على الجرح.

ورجعت إلى القرآن الكريم أبحث عن الجواب المختصر الذي أقدِّمه إلى العالَم من خلال وحي السماء، فرأيته باختصارٍ يرجع إلى فساد النفس، فإذا فسدت النفس أفسدت ما حولها، وإذا صَلَحت أصلحت ما حولها.

وربما يُعبِّر عن هذا المختصر قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

إن أنت أمعنت النظر في خلق الله لم تجد إلا توازنًا وكمالاً، وحينما ترى أنواع الاضطراب في الحرارة أو في المناخ أو في الحيوان أو في الجماد أو في الإنسان أو في الأمم أو في المجتمعات... تُدرِك أن هذا السبب الذي يبعث على تشويه ذلك الكمال الذي خلقه الله سبحانه وتعالى، منشؤه ذلك الفساد النفسي، ويُعين الشيطانُ عليه ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩].

﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ إذًا، كلُّ اضطرابٍ مرجعُه فساد النفس.

وقد عبَّر القرآن عن ذلك تعبيرًا صريحًا، يُوجِّه فيه توصيفًا عامًّا، بقوله سبحانه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٣٠].

– وعندما ندخل إلى تدقيقات القرآن في أنواع الفساد الفرعية، نجد أن القرآن يؤكِّد على أن جريمة القتل مرجعها إلى فساد النفس.

واقرؤوا قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠] ومعنى ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾ أي سهَّلت عليه الأمر، وقالت له: ما أيسر هذا الأمر وما أسهله!

شجَّعته على القتل فقتل أخاه من أجل نزوةٍ كانت النفس تطلبها، وحينما تطلب النفس النـــزوة وتكون حاكمةً على الإنسان، يرتكب كلَّ أنواع الجريمة، حتى قتل أخيه.

– ويؤكِّد القرآن أن سبب انتشار الفقر الذي هو آفة إنسانية كبيرة، إنما هو فساد النفس.

واقرؤوا قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]

فالنفس تأمر بالشُّح، والشُّحُّ: البُخل والإقتار، وعندما يقع الإنسان في الشُّح والبُخل والإقتار، لن يصل إلى الفقراء خيرٌ أبدًا، وكيف يصل إلى الفقراء شيءٌ من شحيح؟

وقد قرأتُ في كُتب التصوّف عبارةً جميلة، تندرج في هذا المعنى، وهي قولهم: "**مِنْ أقبح القبيح، صوفيٌّ شحيح**" أي لا يمكن في حال من الأحوال أن يكون للنفس تزكية وصفاء مع وجود البُخل والشُّح.

فالقتلُ يؤكِّد القرآنُ أن سببَه فسادُ النفس، وانتشار الفاقة والفقر سببُه شحُّ النفس وبخلها وآفاتها.

– وعندما أحدث السامريُّ ما أحدثه في بني إسرائيل من فتنة عبادة العجل، حينما صنع لهم عجلاً من ذهب ثم أمرهم بعبادته، يؤكد القرآن الكريم أن سبب تلك الفتنة التي حوَّلت أمَّةً كان لها صحبةٌ طويلةٌ مع رسولٍ من رسل الله وكليمٍ كلَّمه الله، إنما هو فساد النفس.

واقرؤوا في كتاب الله تبارك وتعالى ما قاله السامريُّ معترفًا عندما وصل إليه موسى عليه الصلاة والسلام، قال: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٦] أي سهَّلت لي إحداثَ هذه الفتنة، وزيَّنت الأمر لي فأحدثْتُها.

إذًا، يمكن أن تصل النفس الإنسانية إلى حالةٍ تستخفُّ فيها بكلِّ شيء، وهو وصفٌ وَصَفَ الله سبحانه وتعالى النفسَ به حينما تستخف بأيِّ شيء، لا تبالي أجرمت أم أفسدت... وسمى الله سبحانه هذا الوصف السفه، والسفه في اللغة: الخفة، فهي لا تشعر بما يسمى تأنيب الضمير، ولا تشعر بثِقَلٍ أو وِزْرٍ عليها، ومهما فعلت، أو سرقت، أو أفسدت، أو وقعت في أنواع الشرور... تجد ذاتها خفيفة، وهو وصف السفه.

لهذا قال الله سبحانه في القرآن: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] أي إلا من أوصل نفسه إلى وصف السفه فاستخفَّ بكل شيء، وعندها لن يختار دين الله، ولن يختار ملة إبراهيم التي هي باختصارٍ التوجُّهُ في الباطن إلى الله، وعبادةُ الله تعالى في الظاهر فعلاً وسلوكًا.

لا يمكن للنفس أن تخرج عن هذه الأوصاف إلا حينما تدخل في رحمة الله، فلا يكفي أن نشير إلى العلة والآفة من خلال القرآن الكريم، لكن لا بد أن نبحث عن طريق الخلاص الذي يخرج هذه النفس، ومن خلال الدواء القرآني الذي أنزله الله سبحانه لكل الناس.

إذًا، لا تخرج النفسُ عن أوصافها الذميمة هذه حتى تدخل في رحمة الله.

قال الله تعالى على لسان امرأة العزيز التي تابت واعترفت بطهارة يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾ [يوسف: ٥٣].

وقد أقسم الله تبارك وتعالى أحَدَ عشر قسمًا لإثبات قيمة تزكية النفس فقال سبحانه: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا، وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا، وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ١-٨].

فأقسم أحد عشر قسمًا لإثبات قيمة تزكية النفس.

وإذا أردنا اختصار الطريق العمليِّ أو التربويِّ من خلال القرآن أيضًا، الذي يُتوصل من خلاله إلى تزكية النفس وصفائها، رأينا مستوياتٍ أربعة:

١- التذكير بهداية الله تعالى التي أنزلها بوحي السماء إلى الأرض:

حينما يذكِّرُ الإنسان نفسه بالقرآن، ويذكرها بتوجيه سيدنا محمد عليه الصلاة السلام في حديثه الذي هو وحي السماء أيضًا، أي: التذكير بالقرآن والسنة، والتذكير بهدي الله تبارك وتعالى الذي أراد به هداية الإنسانية.

ونقرأ هذا في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام: ٧٠] أي وذكر بوحينا الذي أوحيناه إليك النفوسَ حتى لا تهلك، أي حتى لا تهلك النفوسُ بما كسبت.

﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي حتى لا تهلك النفس بسبب فوضويتها ووقوعها في الاضطراب.

إذًا، إذا أردنا أن ننشر تزكية النفس في أنفسنا أولاً ثم في الناس، فالتذكير الأول هو التذكير بهداية الله سبحانه وتعالى، فنعرض القرآن على النفس، ونقرؤه عليها حتى تتدبَّر معناه، وحتى تعتبر وهي تقرؤه.

٢- التذكير بالآخرة:

ونقرأ هذا في قوله تعالى: ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾[الحشر: ١٨] والغد هنا الآخرة.

فتذكير النفس بالمآل الذي ستنتقل إليه الذي هو الآخرة، حينما يبقى يذكِّرها ليل نهار، يقول لها: ماذا قدمْتِ؟ ماذا تزوَّدْتِ؟ ماذا أعدَدْتِ للآخرة؟

إذا كنتِ تشتهين ما تشتهينه فإن الآخرة فيها ما تشتهينه مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت.

النزوة التي تبعثكِ على الشرور ستجدينها أحلى وأعلى وأكمل في الدار الآخرة.

اقرأ على نفسك وأنت تذكرها بالآخرة وبالجنة: ﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢] أما شهوة الدنيا فإنها منقطعة زائلة.

شهوة الآخرة تلبيها مكوَّنات الجنة، أما شهوات الدنيا فإنها منقطعة، فالدنيا دارٌ لقضاء الحاجة، أما الجنة فإنها دار المتعة واللذة.

واقرأ على نفسك: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]

واقرأ عليها: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

٣- التذكير بعظمة بالله:

فإذا ذكَّر نفسه بعظمة الله تعالى ذلَّتْ، وإذا ذلت تنقاد لأمر الله تعالى، ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] أي ذكِّر نفسك بعظمة الله، وأسمِعها ليل نهار أن الملك العظيم هو الله، وأن الذي بيده مقاليد كل شيء هو الله.

واسمع من ذلك النموذج الذي حضرَتْ عظمةُ الله تبارك وتعالى في نفسه، فقال للذي مدَّ يده ليقتله، لذلك القاتل الذي قتل أخاه، الذي قال الله فيه: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ [المائدة ٣٠]، ماذا قال أخوه قبل أن يقتله أخوه الآخر؟

قال: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨] إنه تعظيم الله، فإذا وُجِدَ تعظيم الله في النفوس تتزكى تلك النفوس وتتطهر.

٤- التذكير بسيدنا رسول الله صل الله عليه وسلم:

قال الله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٦]

وهكذا تقول لنفسك: إن ما تملينه عليَّ فيه وفيه، أمَّا ما يمليه عليَّ سيدُنا رسولُ الله فما فيه إلا الخير، لأن النبي أولى بي منكِ، فأنتِ تملين عليَّ أمورًا أعرفها ولا أعرفها، أما رسول الله صلى الله علي وسلم فإنه أولى بي منك، ولا يأمرني إلا بخير، فأنت تأمرينني بخيرٍ وشرٍّ، أمَّا رسول الله فلا يأمرني إلا بخير، فأنا أعشق رسول الله وأحب رسول الله وأتَّبع رسول الله، ولا أقدم ما تملينه عليَّ على ما أمرني به سيدي رسول الله.

هذه هي المستويات الأربعة التي إن نحن حوّلناها إلى منهجٍ عمليٍّ:

- نذكر النفس بالقرآن.
- نذكر النفس بالآخرة.
- نذكر النفس بعظمة الله.
- نذكر النفس بالمرسَل الحبيب المحبوب محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، سيدِنا رسول الله.

عندها سنرى تغييرًا ظاهرًا ينبعث عن هذا التغيير الباطن: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ردنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.